جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴱⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

كلية الآداب و العلوم الإنسانية -ظهر المهراز
ⵜⴰⵖⵡⵍⵍⴰⵢⵜ ⵏ ⵜⵓⵔⵉⵔⵉ ⴰ ⵜⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵜ ⵜⵉⵏⵣⵔⴼⵜ - ⴸⵙⵕ ⵍⵎⵙⵙⴰⵀⵔ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Dhar El Mahraz

بسم الله الرحمان الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا ومحمد وآله وصحبه

مادة أدب مغربي وأندلسي// الفصل الرابع

شعبة اللغة العربية وآدابها

الأدب العربي بالمغرب الأقصى في العصر المرابطي

الأستاذ خالد سقاط

سننطلق إن شاء الله مما قاله عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب":(... وانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة ، من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار)

يقول كذلك عن ابنه علي ، الذي منذ مبايعته وهو آخذ يعمل جاهدا على تمكين الطابع الأندلسي من الأدب المغربي:(... ولم يزل أمير المسلمين أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب، أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون في جماعة يكثر ذكرهم).

يجرنا هذا الكلام إلى الحديث عن مصير المعتمد في يد المرابطين ، وقول المنصفين والمعارضين، وقبلها لابد من الحديث عن بداية المرابطين في المغرب الأقصى ، وضمهم

المغرب الأوسط و الأندلس والسودان. وكيف يرى المستشرقون المد المرابطي خارج حدود المغرب الأقصى والأوسط ،ومدى انعكاس ذلك على الحركة الأدبية والعلمية والثقافية عامة.

قال ابن خلدون:(وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقا بالمغرب ، من كلمة الإسلام وتمسكوا بالسنة).

مهد للدولة المرابطية رائدها الديني عبد الله بن ياسين الجزولي (21 سنة)، الفقيه الفضل التقي الورع، كما وصفه ابن أبي زرع، تلميذ وجاج بن زلتو اللمطي، الفقيه الصالح بالجنوب المغربي، تلميذ أبي عمران الفاسي المنفي إلى القيروان بسبب مذهبه في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف. هذا الأخير كان قد مر عليه بالقيروان في طريق عودته من الحج أحد زعماء صنهاجة ، وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي، وتحدث معه عن سوء أحوال المغرب الاجتماعية والدينية، فأرسل معه رسالة لتلميذه وجاج ، الذي رشح عبد الله بن ياسين لتعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين، إلا أنه ثقلت وطأته على أهل المغرب ، ونفرت منه قلوبهم ، فأعرض عنه أهل بلاد صنهاجة . فخرج بمن معه بدعوته إلى رباط بعيد في الصحراء، فتسامع الناس به فوردوا عليه، فسماهم: المرابطون. وقال فيهم دستورا حثهم فيه على الجهاد، لاستئصال الفساد ونشر الفضيلة وتطبيق الشريعة بين القبائل التي أفسدها دعاة الخوارج من أصحاب البدع والنزعات الضالة، كالروافض والبرغواطيين ببلاد تامسنا ، وتوزع الإمارات مثل مغراوة بفاس، وإمارة بني يفرن بسلا، وإمارة بني حمود في البصرة وسبتة وطنجة وأصيلا.

بدأ عبد الله بن ياسين في تثبيت دعائم الإسلام في صنهاجة منذ سنة 430هـ، وسجلماسة ودرعة وسوس، وبعد استشهاده سنة 451هـ في معركته مع البرغواطيين، ولي أمر المرابطين الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني، الذي ولي بعده ابن عمه يوسف ابن تاشفين ، الذي صفى

حكم المغرب، ونقل العاصمة إلى مراكش التي بناها سنة 454هـ، ثم تملك المغرب الأوسط، ودخلت بلاد السودان والنيجر في طاعته، فذاع صيته وعظم أمره ، مما جعل أنظار أهل الأندلس تتعلق به للنجدة والإنقاذ من عتو وتفريط ملوك الطوائف ، الذين اتبعوا الشهوات والملذات، وتعاونوا مع الأعداء، ونسوا تأمين البلاد والعباد ، والذين تنازعوا النفوذ منذ سقوط الدولة الأموية بالأندلس، بعد الفتنة البربرية التي أطاحت بالأمويين . ولم يكلفوا أنفسهم الدفاع عن الأندلس من التهديد النصراني ، الذي كان يريد الاكتساح الكلي . مما جعل مسلمو الأندلس يستنجدون بيوسف ابن تاشفين ، بعد يأسهم من ملوكهم، فكانت وقعة الزلاقة سنة479هـ، التي لم يستفد ملوك الأندلس من انتصار المرابطين فيها، وقفولهم إلى المغرب، فرجع ملوك الأندلس بعدها إلى حياتهم العابثة، وعرضوا البلاد من جديد للضياع، فاستنجد فقهاء الأندلس وأعيانها مرة ثانية بيوسف بن تاشفين، الذي عمل على القضاء النهائي على ملوك الطوائف بها، وضم بلاد الأندلس إلى المغرب الأقصى والأوسط ، وأعلن بعدها يوسف ابن تاشفين مباعيته للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله.

فرحب أهل الأندلس، فقهاؤها وعلماؤها وأدباؤها بجواز المرابطين للأندلس وإنقاذها. أما ملوك الطوائف، فمنهم من ألقى القياد، ومنهم من تعنت وتعاون مع العدو ، مثل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وكذلك المعتمد بن عباد الشاعر ، وأهم ملوكهم وأشهرهم وأشعرهم الذي نفي أخيرا إلى مدينة أغمات، بعد أن كان أقدمه مع أسرته إلى طنجة ثم مكناس ، إلى أن تقرر مصيره في أغمات عاصمة المغرب، قبل بناء مراكش. وكان للمعتمد علاقة بيوسف بن تاشفين منذ زيارة المعتمد له بالمغرب مستنجدا به في المرة الأولى، تجت ضغط الرأي العام الأندلسي، بعد ما شعر المعتمد بانحراف الرعية عنه وعن غيره من الملوك، وكان يوسف لبى طلبه آنذاك.

إنه من الثابت تاريخيا أن يوسف بن تاشفين لم يعد إلى الأندلس بعد معركة الزلاقة، ويستخلصها من أيدي ملوك الطوائف، إلا بعد أن كتب إليه العلماء والفقهاء يناشدونه الله والإسلام أن يبادر لإنقاذهم من سيطرة ملوك السوء، الذين انصرفوا بعد رجوعه للمغرب إلى حالهم من الظلم والقهر واللهو والمجون والتحالف مع النصارى. فلما رأى إجماع الأمة، من العلماء ورجال الحرب فيها على رأي واحد، عزم سائرا إلى الأندلس، وطرد ملوكها، وتخليصها منهم لحكمه وتسييره. وكان من بين من كاشف جيش المرابطين بالعداء وناشبه بالقتال، المعتمد بن عباد، الذي رغم ذلك أوصى يوسف رجاله بالعناية به، نظرا لمكانته الاجتماعية والأدبية، ولكنه كما قيل، ملأ الدنيا بكاء وعويلا. فنفاه للأماكن السالفة الذكر. ونكتفي في الموضوع بما قاله عبد الله كنون: لقد كانت معاملته له، بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها، لقلت إنها من المستحيل...لقد أرسله إلى طنجة، عروس المغرب، ثم مكناس، ثم تقرر مصيره في أغمات...التي كانت عاصمة الدولة قبل بناء مراكش. ويقول المؤرخون عنها، إنها مدينة كبيرة في ذيل جبل كثير الأشجار والثمار...ويشقها نهر عليه أرحية كثيرة تدور صيفا، ويجمد النهر شتاءا، فيمر عليه الناس والدواب، وأهلها ذوو يسار وأموال، وليس في المغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف الخيرات، ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظا ولا خصبا منها. انتهى من كتاب النبوغ المغربي.

ورغم ذلك، فقد أسالت قضية نفي الأمير والشاعر المعتمد بن عباد إلى أغمات مداد أقلام كثير من المؤرخين والنقاد، منقسمين إلى مؤيد ومعارض. مع العلم أن معاملة ابن تاشفين للمعتمد كانت أرحم بكثير كما تقول المصادر، من معاملة المعتمد الشاعر لوزيره ونديمه وأكثر مقربيه ابن عمار، الشاعر الرقيق، الذي قتله بيده، وهو مكبل بالقيود يجرها ويبكي ويستعطفه شعرا أمام أبنائه وزوجته.

يقول عباس الجراري: إن قضية المعتمد بن عباد مقحمة في الأدب، وهي قضية سياسية، لا علاقة لها بمدى تذوق الشعر...أما معرفة يوسف فلا جدال أنها كانت محدودة من حيث اللغة والقرآن والدين، ولكن ليس إلى الدرجة التي تصوره بها النقشبندي، حين قال إنه لم يكن يعرف العربية، ولا يفهم ما يقال بحضرته من شعر، وأنه كان يسأل عن هذا الشعر إذا كان فهمه، فكان يجيب بأنه أصحابه يطلبون الخبز. ولعل ما دفع لمثل هذه الانتقادات، هو أن يوسف ابن تاشفين لم يتخذ في البداية له شعراء رسميين، ولا مجلسا خاصا ببلاطه للشعر والشعراء.

وفي كتاب الاستقصا للسلاوي كلام طويل عن الحملة المدبرة ضد يوسف ابن تاشفين وولاته، وأنه كان بربريا، بعيدا عن شروط الملوك ومظاهرهم، ولا يعطي قيمة للأدب ورقة حاشية الشعراء وأحاسيسهم، ولا يفهم قولهم، ولا يتذوق شعرهم، بعيد جد عن الحضارة والفن، ونتيجة ذلك ما فعله من تنكيل بملوك الأندلس وندمائهم ومخدوميهم وشعرائهم.

كما أن مسألة تدهور الحياة الفكرية في الأندلس في عهد المرابطين كليا ونسبيا مع الموحدين بسبب تعصب الولاة واضطهاد العلماء ، ويظهر ذلك في مسألة نفي المعتمد و إحراق الأحياء والإساءة إلى الفيلسوف ابن رشد من طرف الموحدين، يمكر الرد عليه وتفسير بعض تبريراته بأنه كان أساس دعوة المرابطين العلم، ونزعة عبد الله بن ياسين كانت علم الفقه والدين ، أقوى من علم آخر، لذلك قدم الفقهاء وخصهم بمناصب الدولة، من دون اضطهاد للآخرين، بغض النظر عن الذين كانوا يتلبسون بلباس الفقهاء وعلماء الدين ، طمعا في الحظوة من السلطان. أما إحراق (الإحياء) كما سنرى فقد كان زمن علي بن يوسف بالأندلس والأقصى والأوسط، وهي مرحلة التشبع بالعلوم الدينية في شقها الروحي السلفي المتسامح ، الخالي من الخلافات المذهبية والبدع، مما جعل رجال الفقه والدين يرفضون انتشاره ، لأنه مليء بآراء

المتكلمين ومذاهب الصوفية الفلسفية البعيدة عن التصوف السني، والرياضة الروحية والمجاهدة النفسية، وأنكروا كذلك علي ابن العريف وابن برجان والميورقي، متناسيين مولاة يوسف للغزالي. لقد كانت الدولة كانت خاضعة لرأي الفقهاء ، والإحراق أفتاه قاضي قرطبة أبوعبد الله بن حمدين، تبعه العديد، وممن عارضه أبو الفضل بن النحوي الجزائري وأبو الحسن البرجي فقيه المرية، وتراجع علي بن حرزهم فقيه فاس على موافقته للإحراق.

مع العلم كما سنذكر، أن هناك شعراء كبارا مدحوا صنيع ملوك المرابطين، مثل ابن خفاجة وأبي بكر بن رحيم وأبي محمد بن عطية أبي عامر بن أرقم وأبي جعفر بن مسعدة وابن سارة الشنتريني. كما أنه في عهد المرابطين تطور فن الزجل مع ابن قزمان ومع الموشح مع التطيلي وابن بقي وابن باجة وابن اللبانة. ولكن المستشرقين قالوا إن ظهور الموشح والزجل دليل على تراجع الاهتمام بالقصيد وهبوط الذوق.

ولكن الثابت أن المعارضين ليوسف بن تاشفين كان جلهم من ندماء الملوك ومخدوميهم.

والثابت كذلك أن المرابطين زادوا في عمر الأندلس الإسلامية أربعة قرون، ظهر فيها ابن رشد وابن طفيل وأبناء زهر وابن العربي وابن الخطيب و عديد من رجال العلم والفلسفة ورجال الدين والأدب.

كما أن الحياة الفكرية في الأندلس ازدهرت أيام المرابطين، بشكل يفوق ما كانت عليه أيام الخلفاء الأمويين وملوك الطوائف وخاصة في ميدان العلوم والآداب. ومعظم أعلام الفلسفة والطب الأندلسيين عاشوا في عصر المرابطين وبعده أمثال:

-ابن باجة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف والطبيب والموسيقار.

-أبو الوليد بن رشد وأبو بكر بن طفيل وأبناء زهر في أعقاب المرابطين وظهر آثارهم في العصر الموحدي.

-الفلسفة الرشدية.

-الفلسفة الميمونية.

-أعلام الفقه والتصوف مثل ابن رشد الكبير وأبي بكر بن العربي وابن عربي الحاتمي وابن سبعين.

-كبار اللغويين والنحاة والمفسرين.

-كبار المؤرخين (الفتح ابن خاقان- ابن بسام الشنتمري)

-فضلا عن الأدباء والشعراء والكتاب.

انتشر التصوف الرياضي ومجاهدة النفس وليس الفلسفي . وكان للعلوم الفلسفية والرياضية والطب عناية في العصر، مثل أبي بكر بن باجة كان يرعاه أمير مرابطي ويسكن فاس، وأبي العلاء بن زهر الطبيب والعديد. كما ظهر الاشتغال بالعلوم الأدبية واللسانية من نحو ولغة وشعر وكتابة، والكثير من الأدباء والشعراء تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين في قلائد العقيان والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

-نبغت مرابطيات في الأدب.

-بني جامع ابن يوسف بمراكش على غرار جامع القرويين بفاس.

-توسيع القرويين أيام علي بن يوسف.

الرعاية المرابطية للأدباء الأندلسيين أثرت كثيرا في الأدب الأندلسي، فظهر قويا وجزلا، واختفت عناصر الضعف والفسولة التي كانت أيام ملوك الطوائف، مما اعتبره دوزي تدهورا في حقه.

وكانت رعاية المرابطين للأدب وأهله تشمل الكتاب كذلك:

- عبد الرحمان بن أسياط استشاره يوسف.

-أبو بكر بن القصيرة من وزراء المعتمد وكتابه.

-محمد بن عبد الغفور كاتب يوسف.

-عبد المجيد بن عيدون.

-الوزير أب ومحمد بن أبي الخصال الذي لم يكن مخلصا في خدمة المرابطين.

-أبو بكر بن باجة، كتب للأمير أبي بكر إبراهيم المعروف بابن تفلويت.

-الفتح ابن خاقان ألف كتابه قلائد العقيان باسم إبراهيم بن يوسف.

نختم الفقرة ونربطها بالموالية بالقول بأن المغرب إبان الدولة المرابطية كان يحمي الأندلس ويبعد عنها العدو بالجيوش الجرارة، والأندلس ترسل وتبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب ؛ رجالها يخدمون الدولة، والكتاب والشعراء يزينون بلاط مراكش .أو كما قيل، فتح يوسف ابن تاشفين الأندلس عسكريا، وفتحت الأندلس المغرب حضاريا وثقافي، وذلك حينا انبهر المرابطون بحضارتها وعلومها وآدابها وفنونها ومعمارها، فعملوا على نقله إلى المغرب. فانتقل المعمار لبناء الجوامع والقصور على النمط الأندلسي. كما نقل نبهاء علمائها إلى العاصمة مراكش. ولم تعد العلوم الإسلامية والأدبية كافية وحدها للقيام بشؤون الدولة وحاجيات الأمة، فكان لا بد من تدريس العلوم الرياضية والطبيعية بالقرويين بفاس وابن يوسف بمراكش، وكانت

الأندلس راقية في هذا المجال، بقدر ما كان المغرب شبه خلو منها. حتى تخرج الأطباء والصيادلة والمعماريين من كبريات جوامعها. فكانت الحركة مثمرة وإن لم تتسع آفاقها لعدن طول الدولة المرابطية. وستظهر نتائج ذلك مع الموحدين الذين نبهوا الأفكار وحرروها من الخمول ونشطوا الهمم من الخمود والجمود، عن طريق الاهتمام بالترجمة ونقل الكتب وتشجيع نشر العلوم ماديا ومعنويا. فنبغ في زمن الموحدين العلماء في مختلف العلوم، حتى عدت المرحلة بالعصر الذهبي في تاريخ المغرب.

كما أن الاحتكاك بالأندلسيين فعل الأفاعيل في تقدم الحياة الفكرية بالمغرب ، ونهضة العلوم والآداب.

1. الحركة الفكرية:

أ -المرابطون ووحدة المذهب:

لقد توطدت دعائم الدولة المغربية في عهد المرابطين، بعد صراعات ونزاعات أفرزتها مرحلة ما بعد دولة الأدارسة، اتخذت أشكالا وأبعادا متعددة، جعلت المغرب يعيش مرحلة صراع سياسي، وأزمات اقتصادية واجتماعية متعددة، وغليان سلبي في كل المجالات، تمثل أخطره، في تلك الجهود المبعثرة التي كانت تضطلع بها كل إمارة على حدة، عقب الصراعات الطويلة التي انتهت إليها الدولة الإدريسية بين الإخوة والأبناء والأحفاد. مما انعكس سلبا على جميع الميادين. وكنا رأينا في الحصص الأخيرة بالقاعة، قبل هذا الطارئ الصحي، تأثير تلك الصراعات على المجال الفكري والأدبي، ورأينا نماذج نثرية وشعرية معبرة عن

الواقع المعيش آنذاك. ونتمم مسيرة الأدب العربي بالمغرب الأقصى بتقديم إن شاء الله صفحات موجزة عن ما آل إليه الأدب العربي في المراحل الموالية، نقصد العصر المرابطي والموحدي، بالمغرب والأندلس. على أن تلي هذه الملخصات أخرى عن العصور اللاحقة.

لقد كان على الدولة المغربية، بعد تمزق البلد إلى إمارات متنازعة، أن توطد الأمن والاستقرار، ليتجه أفراد الأمة نحو الإنتاج والبناء، وهكذا عمل المرابطون على تثبيت دعائم المذهب المالكي في بلاد صنهاجة وسجلماسة ودرعة وسوس، كما قاتلوا البرغواطيين في بلاد الشاوية، وكانوا كما يرى عبد الله كنون" أهل نحلة فاسدة وزيغ عن الدين".

ولما كانت بلاد الأندلس تعيش مرحلة تمزق بين أمرائها، كان على يوسف بن تاشفين أن يجيب طلبهم للنجدة، وينقذ بلاد الإسلام في الجزيرة من الخطر المسيحي الذي يتهددها، ففعل ووحد العدوتين، وامتدت أطراف الدولة إلى أقاليم السودان بجنوب المملكة، والمغرب الأوسط شرقا. فكان ولابد أن يكون وراء هذه الفتوحات من يوجهها روحيا، ويثبت لها دعائمها الإيديولوجية، وهكذا كانت فئة الفقهاء من أهل المذهب المالكي تقوم بهذه المهنة.

ولا غرابة، فقد وجد المغاربة في وحدة المذهب المالكي ما لم يجدوه في اختلاف المذاهب الأخرى التي كانت دخلت المغرب إبان الأدارسة وبعدهم. ذلك أن المغاربة لم يستغربوا في هذه المرحلة بالقدر الكافي في القرى، كما في المدن، حتى يستوعبوا التعددية المذهبية. ولم يروا في السابق نموذج الدولة القوية، الذي يثير مجموعة من النقاشات، فهم منشغلون ببناء دولة الوحدة القوية، ولم يعرفوا النقاش الفكري والإيديولوجي حول الدولة وطبيعتها، كما كان الحال بالمشرق العربي، ولم يعرفوا بعد النقاش العقدي الذي عرفته مختلف الفرق الإسلامية.

وهكذا لم يكن يقرب من أمير المسلمين، كما يرى المراكشي في المعجب، ويحظى عنده بالعناية، إلا من علم علم فروع المذهب المالكي، حتى نفقت في ذلك الزمن كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها. وكثر ذلك حتى نُسي النظر في الأصلين، كتاب الله وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام. كما دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، لأن الفقهاء المقربين من أمير المسلمين المرابطي عملوا على تقبيح علم الكلام، وهجر من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد.

لقد قلنا إن الدولة كانت في مرحلة البناء، وإبراز المؤسسات، وتوطيد الأمن، وتأسيس المدن العلمية، بجوامعها ومجالسها الفكرية، وكان الإسلام هو أساس وحدة الأمة، وبطبيعة الإنسان المغربي البسيط، فإنه كان في غنى عن النقاشات التي قد تزعزع إيمانه. إنه كان متحمسا لأقصى حد للدين الجديد، بالطريقة المعتدلة والبسيطة، التي توافق ذهنه وتكوينه الفكري البسيط، لا طريقة الجدل المعتمد على الجدل والتأويل والقياس.

ثم إن هنالك عاملا آخر، ساعد على تثبيت وحدة المذهب، أي تحكم الفقهاء المالكيين، المقربين من رجال السلطة الحاكمة، وهو النموذج القريب في عدوة الأندلس، حيث كان المذهب المالكي أساس الحكم فيها، وأساس النظر إلى القضايا العقيدية والتشريعية، فأصبح يراد مثيله بالفعل في المغرب، كما أشار إلى ذلك المراكشي، حتى يكون أساس كل اجتهاد، وأن غيره بدعة في الدين، قد يؤدي أكثره إلى اختلال في العقائد. وهو يشير إلى طريقة علماء الكلام، التي تعتمد المنطق والقياس في الجدل الديني.

ويرى بعض الباحثين، أن وحدة المذهب هذه، أدت إلى شيئين اثنين، ربما كان لهما أثرهما السلبي على الثقافة المغربية والأندلسية، إبان حكم المرابطين. ولعل أثرهما امتد إلى ما بعد ذلك. وهما: أ- عدم خصوبة الفكر المغربي: وبهذا الصدد يرى أركون، أن وحدة المذهب أدت إلى فقر فكري، بحيث أن مفكري المغرب، لم يناقشوا بعض القضايا الأساسية، ويجادلوا فيها إلا من منطلق فكري أو إيديولوجي واحد.

ولكن وحدة المذهب هذه، تبدو إيجابياتها في نظرنا، في كونها حافظت على وحدة كيان الأمة عبر القرون، رغم التعددية في الأجناس التي عرف بها المغرب إلى يومنا هذا.

ب- سيطرة الفقهاء على التوجيه الديني ومن ثم التوجيه السياسي: مما أبعد التعددية في النظر، ونقصد روح الاجتهاد خارج المذهب المالكي، ويرى المستشرق دوزي بهذا الصدد، أن الحياة الفكرية تدهورت في الأندلس المرابطية بسبب سيطرة الفقهاء. انتهى

ولعلنا لسنا في حاجة إلى نفي التحامل الذي ابتليت به دولة المرابطين، ذلك أن التاريخ يشهد لها أنها باعتمادها وحدة المذهب المالكي وتوطيده، أوجدت المناخ الملائم لإبراز المغرب كقوة موحدة، مستعدة للبناء السياسي والعسكري والاقتصادي. وهكذا فإن هذه الفاعلية المرابطية، وفقهائها المالكيين، أمدت في عمر الأندلس أربعة قرون أخرى في حضن الإيديولوجية الإسلامية. وستعطي الأندلس من كبار المفكرين وفلاسفة العصر الشيء الكثير، من أمثال ابن رشد وابن باجة، مما يفند دعوى دوزي وغيره.

وإذا كانت الدولة المغربية حققت للأندلس الحماية والاستقرار، فإن الأندلس في هذه المرحلة أسهمت في رفع المستوى الثقافي للمغرب، وذلك بدخول مجموعة من العلماء والأدباء، بلاد المغرب، إما للزيارة أو الاستقرار أو التدريس، أو للقيام بوظيفة سياسية في مراكش عاصمة المغرب آنئذ. وهكذا انقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، كما يقول عبد الواحد

المراكشي، من الجزيرة من أهل كل علم فحوله،حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار. انتهى.

فضلا عن ذلك، ازدهرت في المغرب مجموعة من الحواضر العلمية والمراكز الثقافية، كفاس وسبتة ومراكش، وكذلك حواضر الأندلس. وكتب تاريخ الثقافة المغربية تحدثا بتفصيل عن هذه الظاهرة، وعما أنتجته من رجالات في مختلف فروع المعرفة، مما يؤكد أن ملوك المرابطين كانوا إلى جانب تشجيع نشر المعرفة، ولكن في الحدود التي يتيحها الإطار المذهبي، الذي اختارته الأمة في هذه المرحلة من التأسيس للدولة القوية المترامية الأطراف. وهكذا، فالأسماء العلمية والفكرية والأدبية التي اشتهرت في هذه المرحلة أو التي بعدها، هي التي برز عطاؤها ومشاركتها في العهد الموحدي. يؤكد ما ذهبنا إليه مثل القاضي عياض وابن باجة وأبو الحسن بن زنباع، والأصولي والكلامي أبو القاسم المعافري السبتي، وعبد الملك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش، والعالم المناظر عبد الرحمان الكتامي الأصيلي. ورغم كل هذا النمو الفكري المطرد في الثقافة المغربية إبان العهد المرابطي، وُجد من وجه اللوم إلى ملوكهم، وإلى فقهائهم بالذات، من أنهم كانوا ضد المعرفة، وذلك بإفتائهم بإحراق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، لما وصل إلى المغرب عبر الأندلس. فما هي جذور هذه القضية. وما هي ملابساتها وكيف تمت الفتيا؟

ب ـ **<u>إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي</u>:**

لقد أثير جدل كبير حول هذه القضية من طرف باحثين عرب وأجانب ومستشرقين، ويجب أن نشير أولا، إلى أن الغزالي كان معجبا بالمرابطين وبدولتهم، وكانت بينه وبينهم

مراسلات، كما تحكي كتب التاريخ، حيث كان يرى فيهم الدرع القوي والحامي للإسلام في الغرب الإسلامي، فبارك دولتهم وأعمالهم. ولما وصل كتابه إلى المغرب، تولى النظر في محتواه مجموعة من الفقهاء، باعتبارهم أهل الحل والعقل في مثل هذه الأمور زمن الدولة المرابطية. ولعلهم، أو نقول متأكدين، أنهم وجدوا أن بعض قضاياه لا توافق وما يدعون إليه، في إطار المذهب المالكي. ورأوا ما فيه من منهجية استعمال القياس والمنطق والنظر، مما لا يتفق ومنهجيتهم الفقهية والعملية، وما يرونه مناسبا للفكر والعقل المغربيين آنذاك. أو لعل بعضهم كان على علم بالصلة التي كانت بين الغزالي وأمراء المرابطين بمراكش، وإعجابه بهم، وقدر ما قد يكسبه من حظوة عندهم، وقد يدعو الأمر إلى استقدامه إلى حاضرة المملكة، كما استقدم أمثاله من الأندلس، إن أصبح كتابه: إحياء علوم الدين، متداولا في المغرب، مما قد يثير مجموعة من المتاعب في الوسط العلمي بالمغرب، وقد يبعد خدماتهم وحظوظهم عن القصر، فأريد أن تقطع الطريق عليه بإحراق كتابه.

ومما يؤكد هذا الاحتمال، كما يقال، هو أنه هم بزيارة أمير مراكش يوسف بن تاشفين، إلا أن موت يوسف حال بينه وبين السفر إلى بالمغرب، حيث بلغه نبأ الوفاة، وهو يهم بالسفر. وهكذا تولى أمر الفتوى في أمر الكتاب أبو عبد الله بن حمدين، قاضي قرطبة، فأفتى بإحراقه، وجمعه من المساجد والمنازل. وتبعه في فتواه بعض فقهاء المغرب، وعارضه البعض الآخر. ولعل من أفتى ضد إحراق الكتاب، بالإضافة إلى ما سبق، لم تكن ثقافته تتيح له استيعاب ما فيه. وذلك راجع، كما قولنا، إلى أن علوم النظر، وما يتبعها من جدل، لم يكن عموم المغاربة وبعض خواصهم من العلماء والفقهاء، قد تعودوا عليها بعد، وأن الفئة الشعبية لم تُحضَّر بعد لاستيعاب هذا النوع من التفكير والذهنية.

لعل لهذه الأسباب ولغيرها، أُفتي بحرق الكتاب، وكان على السلطة الحاكمة والسياسية أن تزكي موقف السلطة الدينية، المتمثلة للقانون، على الرغم من الصداقة المذكورة سلفا للإمام الغزالي للسلطة السياسية، وإعجابه بفعلهم وجهادهم. مما يؤكد أن سلطة الفقه المالكي ورجاله كانت فوق كل اعتبار. ومع ذلك وُجد من عارض فتوى الإحراق كأبي الحسن البرجي، من فقهاء ألمرية.

ومن كل هذا يمكن استخلاص الملاحظات التالية:

ـ أن فتوى الإحراق صدرت من قاضي قرطبة أولا، عاصمة الفتوى بالأندلس المرابطية، وبيده سلطة دينية وسياسية. وتبعه في ذلك جل فقهاء المغرب.

ـ أن هنالك من وافق على فتوى الإحراق وتراجع عنها من بعد، مثل علي بن حرزهم، من فقهاء المغرب، لما تبين له بطلانها، بعد التمعن وإعمال النظر في قضايا الكتاب.

ـ إن الذي أفتى لصالح كتاب الغزالي، أي ضد فتوى الإحراق، لم تتابعه السلطة المركزية، وتنكل به، لأنه خالف فتوى رسمية، مما يدل على أن اختلاف الرأي لم يحمل المرابطين على التنكيل بأصحاب الرأي المخالف.

ـ إن رجال الدين الذين أفتوا لصالح كتاب الغزالي، من الفقهاء العلماء، يدعوننا إلى الاعتقاد بأن التواصل بين المشرق والمغرب كان محققا نسبيا، وبأن صدى ما كان يجري في هذه المرحلة من نقاشات فكرية بالمشرق العربي، كان يجد طريقة إلى الغرب الإسلامي.

2)- <u>الحركة الأدبية</u>:

عندما نتحدث عن الحركة الأدبية في هذه المرحلة، نكون مع نوعين، الأول ما خلفه العصر الإدريسي من نماذج محصورة في أعلام مشرقية تمغربت بحكم استقرارها بالمغرب، من أفراد أسرة الدولة الحاكمة، أبقت عوادي الزمان على قليله. والثاني نماذج مغربية أمازيغية تعربت، وقالت نثرا أو شعرا في الجهاد أو المدح أو المديح، وصلنا منه القليل كذلك.

لذلك سنركز في هذه النقطة عن الأدب الذي ضمته السلطة الحاكمة للغرب الإسلامي تحت إمرتها. فنقول، لقد كان من الطبعي أن ينحو الأدب بصفة عامة، والشعر على الخصوص، أيام حكم المرابطين، وجهة غير تلك التي كان عليها من قبل، في عهد ملوك الطوائف بالأندلس، ذلك لأن مواضيعه وأعراضه لم تعد مواتية للمناخ العم للمرابطين، أي تلك التي كانت متصلة بالغناء والمجون، ووصف القيان والحياة السعيدة لفئة معينة من الحكام، ومن يتصل بهم من ندامى، دون أن يكون لمشاكل الشعب اليومية ومتاعبه، أفرادا وجماعات، صدى يعكس هذا الشعر، وتعبر عنه موضوعاته وصوره، فأخذت الأغراض التي تعكس الهم اليومي للدولة، المتمثل في بناء المؤسسات الكبرى، وتحصين الثغور، ووصف المعارك، والجهاد في سبيل الله، تطغى على الشعراء. ولعل هذا ما أغاض المستشرق دوزي وأمثاله حين قالوا بإن سلاطين المرابطين لم يبدوا كبير عناية بأمر الفنون والعلوم والشعر، وإنهم كانوا يعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية.

ويحق لنا أن نتساءل، عن المدى الذي اهتم به ملوك الطوائف في مجال العلوم والفنون، وأية علوم وأية فنون ازدهرت في عصرهم؟ وأي روح شعرية تحطمت؟ إنها تلك التي تنبعث منها لذات فئة معينة، وحديث عن ملاهي جماعة محدودة. أي روح شعرية لا تعبر عن هموم

الجماعة ومتاعب الفئات الشعبية، التي كانت مثقلة بالضرائب، والتي كانت تتقاذفها مشاعر الخوف وعدم الاطمئنان على مصيرها، حاضرا ومستقبلا، أمام تفكك بنية الدولة العربية بالأندلس، وتناحر أمرائها، وطمع كل منهم في الاستيلاء على الآخر، والتعاون مع العدو المتربص مرارا، كلما إن اقتضى الأمر ذلك.

إن كتب التاريخ تحدثنا عن اهتمام المرابطين بالأدب شعرا ونثرا، ولكن ليس ذلك الأدب الذي لا يعكس سياسة الدولة، وطموح الأمة في الاستقرار والبناء والتشييد. حيث احتضنت مراكش مجموعة من الكتاب والشعراء الأندلسيين، لعل بعضهم جاء ليبارك شرعية حكم أمير المسلمين على الأندلس، بعدما أوشكت على التمزق والضياع. أو لعل أمير مراكش كان يستدعيهم لمجالسه، حتى يحقق لحضرته إجماع الفئة المثقفة على تمثل إديولوجية الدولة. يقول المراكشي في علي بن يوسف: إنه لم يزل من أول إمارته، يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملكنا.
فالاستدعاء الحاصل من طرف علي بن يوسف، وصرفه العناية والاهتمام إلى حضور كتاب الأندلس، يدل على أن أمير مراكش كان يولي هذه الفئة المكانة اللازمة، ويقدر خطورتها في التوجيه السياسي، ويعي دورها الثقافي بين الأوساط المتعلمة في الأندلس والمغرب. وهكذا نجد أمراء آخرين غير يوسف وابنه علي، يتقربون إلى الأدباء ويرعونهم، بما يحفظ كرامتهم. ولا أدل على ذلك مما حصل للفتح بن خاقان، مع إبراهيم بن يوسف، الذي ألف كتاب "قلائد العقيان" باسمه، وذكر في مقدمته فضل هذا الأمير على الأدب، حيث يقول:

ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنده غير وار، وجده عاثر، ومنهجه داثر، إلى أن أراد الله إحياء رسمه (يعني الأدب) وإنارة أفقه، وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل، أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ملكا عاليا للبة المجد حيا.

هذا النص لأديب أندلسي، يدفعنا للتساؤل عن مفهوم هذا الأدب الذي كان متوار، وزنده الذي كان غير وار. هل كان يعتبر ابن خاقان أدب الأندلسيين، على عهد ملوك الطوائف، ليس بالأدب الرفيع، وذلك بالنظر إلى موضوعاته وأغراضه التي أشرنا إلى أنها كانت لا تعكس هموم ومشاغل عموم الشعب، بل كانت تخدم فئة خاصة. أم كان يعني أن شخص الأدب في المغرب كان متواريا، ولم تشتعل بعد روحه حتى رعى المرابطون أهله ورجاله، وخططوا لهم موضوعاته الكبرى، وأغراضه المناسبة لأحداث المرحل.

إلا أنه يبدو أن قول الفتح بن خاقان السابق، كان لا يقصد به الأدب الشاب الذي كان يترعرع بالضرورة بطيئا بالمغرب، والذي ليس له ماض رفيع في المجال حتى يعيبه ابن خاقان، بقدر ما كان ينعت بقوله بالضرورة الأدب الأندلسي، الذي كانت له القوة والجزالة في فترة عاشها الفتح بن خاقان، ففقدها بحسبه في عهد ملوك الطوائف، حتى جاء ملوك المرابطين، وأعادوا له ما فقده بالرعاية والتوجيه والتمثل للموضوعات التي تشغل عموم الأمة. هكذا، فإن رعاية المرابطين المتطور بطيئا في المغرب، والمتميز مع الأدباء الأندلسيين، قد أثرت، بحسب عبد الله كنون، في الأدب الأندلسي خاصة، تأثيرا محسوسا، فظهر بمظهر القوة والجزالة، واختفت منه عناصر الضعف والفسولة التي كانت سائدة أيام ملوك الطوائف. كما انتحى الشعراء في شعرهم المسير من طرف المرابطين مناحي الجد والتوقر، بدل ما كانوا منغمسين فيه من البطالة والمجون. وذلك نتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ والتدين الذي فرضه فقهاء المالكية، والذين كانوا ملهمين لرجال الدولة المرابطية. وهو ما كان أغاض المستشرق دوزي، واعتبر توجيه الأمراء المرابطين للأدباء تدهورا في حقهم، وليس انتعاشا وبعثا للأدب العربي الأصيل.

ومهما يكن من أمر، فإن أمراء المرابطين، وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، قد مدحهم شعراء الأندلس، مما يدل على أن هذا الغرض من الشعر كان له حظ وافر من الاهتمام لديهم، ويتمثلونه تقليلا ضروريا، ويشجعون أربابه، لأنه كان هو القناة الهامة للدعاية والإشهار لأعمال الحكام بالمغرب والأندلس، الذين بدأ يرتبط جهادهم بتوفير الاستقرار وتوحيد البلدين، وعدم الخوف من العدو، وتحقيق العدالة الاجتماعية. يدل على ذلك المدائح التي يزخر بها كتاب قلائد العقيان لابن خلكان، وذخيرة ابن بسام، والتي قيلت في أمراء لمتونة.

حيث مدح ابن خفاجة إبراهيم بن يوسف، ومدح أبو الحسن ابن الجد يوسف بن تاشفين، وقارنه بعمر بن الخطاب. يقول:

انظر إلى الصبح سيفا في يد ملك//في الله من جنده التأييد والنصر

يرعى الرعايا بطـــرف ساهر يقـظ//كما رعاها بطرف ساهر عمـــر

وقصيدة الوزير أبي عامر بن الأرقم في مدح الأمير المرابطي عبد الله بن مزدلي آخر ولاة سرقسطة المسلمين: سريت والليل من مسراك في وهل//مبرأ العزم من أين ومن كســـل

وسرت في جحفل يهدي فوارسه//سناك تحت الدجى والعارض الهطل

والبدر محتجب لم تدر أنجمـــــه//أغاب من سرر أم غاب من خجل

هوت أعاديك من سار يؤرقـــــه//ركض الجواد وحمل اللامة الفضل

إذ الملوك نيام في مضاجعهـــــم//يستحسنون بهاء الحلي والحلـــل

لله صومك برا يـــــــوم فطـــرهم//وما توخيت من وجه ومن عمل

نحرت فيه الكماة الصيد محتسبا//وحسب غيرك نحـــر الشاة والإبـل

إذا صرير المدارى هزهم طربـــا//ألهاك عنه صرير البيض والأســل

كم ضم ذا العيد من لاه به غـزل//وأنت تنشد أهل اللهو والغـــــزل

وكلما رانت الروم الفـــــرار أتت//من كل صوب وضمتها يد الأجل

فصار مقبلهم نهبا ومدبرهـــــــم//وعاد غانهم من جملة النفـــــل

بعد هذا، نتطرق لأهم مميزات الشعر في هذه المرحلة في المغرب، فنقول، إن النصوص الشعرية التي بين أيدينا، والتي هي في كتب الطبقات والتراجم والمختارات الأدبية، أضف إلى ذلك ما حقق من دواوين شعراء المرحلة، على قلتها، يتيح للباحث أن يعطي صورة تقريبية لمميزات الشعر في المغرب في عصر المرابطين، لقد مثلت تلك النصوص مقدار اهتمام الفقيه المغربي بالأدب وما يتفرع عنه، ويتضح كذلك من خلاله هاجس تقليد من سبق وصول أعمالهم للغرب الإسلامي، إما من المشرق أو الأندلس.

لقد برز في هذه المرحلة عدة أدباء، كابن حبوس الفاسي، وأبي جعفر ابن عطية وأخيه أبي عقيل، وأبي جعفر الأغماتي. ولكن برز في هذا العصر شاعران مغربيان، مثلا ظاهرة بارزة، وقع اهتمام الدارسين عليهما، وكلاهما كان فقيها بالدرجة، وكلاهما مارس القضاء مهنة، وكلاهما شارك في حقول معرفية مختلفة، بل إن أحدهما وهو ابن زنباع كان طبيبا، ومع ذلك امتلك ملامح الشاعر المقتدر، قيل، إنه لو تفرغ للشعر لكان من كبار شعراء العربية. الآخر هو القاضي عياض اليحصبي.

شعر ابن بياع ينتمي للمدرسة التمامية، حيث نجد في قصائده أن الوظيفة الجمالية المهيمنة هي الصنعة، في كل أبعادها وتشكلاتها، حيث حرص في صور شعره على جعل المجرد محسوسا، والمحسوس مجردا، كما غلب على شعره العدولات المتمثلة المجازات والاستعارات. كما غلب على شعره الثنائيات اللفظية، من جناس وطباق، وكل ما تميز به الشعر العباسي.

في حين نجد القاضي عياض يعبر عن الغربة في شعره وهو بعيد عن موطنه بالأندلس، أو في وصف المقام الشريف، أو وهو يتغزل. إلا أنه كان أقرب في شعره إلى المدرسة الأندلسية منه إلى المشرقية، كما أن شعره كان خاليا من جل أشكال الصنعة، إلا ما جاء عفويا، لأن أفكاره كانت مباشرة، وتعابيره بسيطة تدل على أن مشاغله كانت علمية وقضائية. كما قال شعرا كثيرا للتخفيف عن هموم النفس والهجر أو مدح الأمير أو مراسلة صديق. كما كان في شعره يحاول إبراز موسوعية علمه التي كان يحاول تأكيدها من خلال مشاركته في مخلف الحقول المعرفية، شعرا ونثرا. يقول في الغزل:

يا من تحمل عني غير مكثرت// لكنه للضنى والسقم أوصى بي

تركتني مستهام القلب ذا حــرق//أخا هوى وتباريح وأوصـــــاب

أراقب النجم في جنح الدجى سهرا//كأنني راصد للنجم أوصابـي

وما وجدت لذيذ النوم بعدكمُ//إلا جنى حنظل في الطعم أوصاب

كما جعل القاضي عياض السيرة النبوية مرجعا لقول الشعر في المديح النبوي، كما هو الحال عند سائر الفقهاء، الذي تتكرر عند جلهم نفس الأفكار والعبارات وذكر الحوادث التاريخية التي كانت عهد النبي عليه الصلاة والسلام. يقول القاضي عياض:

قف بالركاب فهذا الربع والدار//لاحت علينا من الأحباب أنوار

بشراك بشراك قد لاحت قبابهم//فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار

إلى أن يصل إلى قوله: هذا النبي الحجازي الذي شهدت//لـــــه بتقديمه رسل وأخباره

هذا الحبيب الذي أسرى لخالقـه//ليلا وقد ضربت بالليل أستار

لقد اشتغلت عوامل عدة على تنشيط الحركة الأدبية في المغرب في العصر المرابطي، منها: هجرة القيروانيين إليه هربا من عبث الأعراب الذين سلطهم عليهم الفاطميون، فهربوا إلى فاس، وأسهموا في تأتيت مجالسها الأدبية. كذلك هجرة الأندلسيين إثر قيام ثورة البربر والفتن التي قضت على الزهراء والزاهرة. كذلك احتلال بني حمود للشواطئ المغربية مثل سبتة وطنجة، وهم من الأدارسة الذين كانوا نزحوا إلى الأندلس بعد الأمويين، وكان لهم شأن عظيم في الأدب وفروعه، وكان المعتمد ضم بعض شعرائهم لبلاطه. وأدبهم عليه لمحة شيعية. كما أن قدوم المعتمد منفيا إلى المغرب عمل على تنشيط الحركة الأدبية، حيث دارت في أيامه مساجلات بين الأدباء وبين الشعراء، كما أن مغاربة كثر مدحوه حيا، وتأسفوا على حاله بعد موته. وبقي ذكره وانتشر شعره متداولا لمدة طويلة، وخاصة مع ابن اللبانة وابن حمديس الصقلي.

وقد بلغت عناية المرابطين بالأدب والأدباء الأندلسيين، حتى لم يبقكما قيل، منهم أديب مرموق إلا وعين في بلاط أمير المسلمين أو ديوان أحد الأمراء في الأقاليم.

من هنا، يظهر كما يقول عباس الجراري بأنه لم يكن للتيار الفقهي زمن المرابطين كبير تأثير، وأنهم اتخذوه أساسا فقط لقيام أمور الدولة، ولتحيق دعوتهم الإصلاحية، فلم يؤثر

بذلك عميقا على الفكر إلا بالقدر الذي نشطت به الدراسات الفقهية، دون تجميد لبقية الدراسات. أما الأدب فلم يكن له عليه تأثير إلا ما كان من إلغاء للمظاهر الرسمية التي كانت تقام للأدب والشعر في أحضان اللهو والمجون على عهد الطوائف، وما كان من روح القوة التي تسيطر على شعر المدائح والفتوح. وما علا بعض أبيات من الشعر من مسحة دينية.

الاتجاهات الأدبية في الأدب المرابطي:

إن الحديث عن الاتجاهات الأدبية في العصر المرابطي، يرجع بنا إلى الحديث عن مسألة التأثير والتأثر بين المغرب والأندلس، وظاهرة امتداد هذا التأثير، وقد بدأ ذلك بترحيل أفواج من نبغاء الأدب الأندلسيين إلى المغرب، وكذلك عندما بدأ المغاربة يرحلون إلى الأندلس.

ولكن التأثر بالأندلس خاصة على مستوى الموضوعات والصور الشعرية، كان هو الأغلب والأوضح؛ فالمغرب كما قيل، كان يبذل حمايته للأندلس ويدفع عنها العدو والمغير، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب، حيث كان رجالها في خدمة الدولة، وكتابها وشعراؤها يزينون بلاط مراكش. لقد كانت رغبة المغاربة أكبر في التعلم والتمثل، ومن تم الإبداع والتميز. فكيف إذن لا ينجب هذا الاهتمام والحماس أدباء تميزوا وأبدعوا في مختلف الاتجاهات الأدبية، والتي يمكن أن نقف عندها، فنجد:

1 ـ الاتجاه الديني:

المتمثل في أشعار الزهد والتصوف، والمديح النبوي المتشبع بحمولة داعية للالتزام بالقيم الإسلامية والتحلي بالمبادئ الفاضلة، ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه خير تمثيل، الأديب القاضي عياض الذي يصفه ابن الخطيب بقوله: الحقيقة أن عياضا يعد أعجوبة عصره،

وموسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة واتجاهات فيها، فهو ناظم ناثر، منشيء ومؤلف، ناقد وهو حافظ واعية، فقيه مجتهد. كما يصفه بذلك ابن تاويت بقوله: وهو خطيب مصقع، وصوفي متزن متمكن من طريقته.

وإذا أردنا أن نجعل للمغرب أوليات، فآثار القاضي عياض في مقدمتها، لا يتقدمها غيرها البتة، وإذا أردنا أن نضع لرجاله مجلين، فهو هي الصف الأول منها، بل هو المقدم فيها على الإطلاق. وهذه نماذج من آثاره، فيما له علاقة بالاتجاه الديني، وسنلتقي معه مرة أخرى في الاتجاه الذاتي إن شاء الله تعالى.

-قال في إحدى قصائده: (الكامل)

يا دار خير المرسلين ومن به//هدي الأنام وخص بالآيـات

عندي لأجلك لوعة وصبابة// وتشـوق متوقـــــد الجمـرات

وعلي عهد إن ملأت محاجري//من تلكم الجدران والعرصات

لأعفرن مصون شيبي بينها//مـن كثرة التقبيـــــل والرشفات

لولا العوادي والأعادي زرتها//أبدا ولو سحبا على الوجنـــات

-وله في زيارة المقام الشريف: (البسيط)

قف بالركاب فهذا الربيع والدار//لاحت علينا من الأحباب أنوار

بشراك بشراك قد لاحت قبابهم//فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار

بادر وسلم على أنوار روضته//قبل الممات فلا تشغلك أعـذار

-وله قصيدة أخرى يتوسل فيها أو يناجي بها المقام النبوي:

يا عين هذا السيد الأكبــر//وهــذه الروضة والمنــبر

فشاهدي في حرم المصطفى//من نوره الساطع ما يبهر

يا عين إذا ما كنت تبغينــه//فمـــا لأجفانك لا تمطر

هذا مقام المجتبى أحمـــــد//فمثلـــه الأعين لا تنظر

وأي فهم فيه لا ينجلـــــــي//وأي كســـر فيه لا يجبر

-وله أخرى في مناجاة الله جل في علاه: (الطويل التام)

إليك مددت الكف أستمطر الفضلا//وأستكشف البلوى وأستعطف الطولا

دعوتك مضطرا فعجل إجابتـــــي//بتفريج كرب طالما واصل الهــولا

عليك اعتمادي في جميع مقاصـدي//إليك رفعت الأمــر والقول والفعلا

-وقال في الحث على التخلق والتعلم: (البسيط)

يا سائلا عن حميد الهدى والسنــن//أُطلب هديت علوم الفقه والسنن

واعقد القلب فاشدده على ثلـــــج//لا تطوينه على شك ولا دخــن

واسلك سبيل الألى حازوا نهى وتقى//كانوا فبانوا حسان السر والعلن

-وقال أيضا: (الطويل التام)

لجأت إلى باب الكريم لفاقتي//فليس لنا مغنـــى سواه ولا مولى

كئيبا غريبا بافتقار وضيعـــة//ذليلا حقيرا أهمل الفرض والنفلا

-وله كذلك: (مجزوء الرجز)

إليك بؤت بذنبـــي//فاغفر خطاياي ربـــــي

وامنن علي بلطف//تجبر به صـــدع قلبي

فقد ركبت ذنوبـــا//سودت منهن كتبـــــي

2 الاتجاه الرسمي:

يتمثل الاتجاه الرسمي في الشعر المرابطي في الشعر الذي يصف جهود القادة المرابطين في سبيل الإصلاح الديني، ونصرة الإسلام، والدعوة إلى المذهب المالكي، مع الوقوف على نعوت المدح الأربعة، التي وضعها قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" وهي: العقل والعفة والكرم والشجاعة.

ولقد مثل هذا الاتجاه خير تمثيل، القاضي أبو الحسن بن بياع أو ابن زنباع، ويوخذ من تحلية الفتح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان والطب أيضا، أنه شخصية فذة، وأن الأدب هو أقل بضاعة كان يتميز بها، فصار اليوم أكثر ما نذكره به. وشعره مع ذلك في طبقة عالية من حيث البلاغة والانسجام والإجادة في

مختلف الأعراض، فهو مفخرة لقبيله، وحجة على المنكرين براعة المغاربة في الأدب، وخاصة في هذا العصر.

-قال ابن بياع في مدح وزير كتب له الظفر في بعض الفتوح. (مجزوء البسيط)

كذا تصان السيـــــوف في الخلل//ويفخر الخـــط بالقنا الذبل

وتكرم الخيل فـــــــــي مرابضها// بـــر الفتاة العروب بالرجل

ويعطف النبع كالحواجـــــــب أو//أحنى، وتهمى السهام كالمقل

هناك سل بالوزير من شهد الحـر//ب وإن كنت شاهـــــدا فقل

حدث بما شئـــــت عنه من حسن//وعظـــــم الأمر ثم لا تسل

-وله قصيدة ضادية طويلة في مدح أحد الأمراء، استهلها بقوله:

أرى بارقا بالأبلق الفرد يومـــض//يذهب جلباب الدجى ويفضفض

إذا ما توالى ومضه نفض الدجى//له صبغه المسود أو كاد ينفض

وندت إلى الغرب النجوم مروعة//كما نفرت عير من السيل ركض

كأن الثريا والغروب يحثهـــــــا//لجام على رأس الدجا وهو يركض

3 الاتجاه الذاتي:

ويتمثل في الشعر الذاتي الذي ينظمه الشعراء بدافع ذاتي كالغزل ووصف الطبيعة، ولعل عياضا وابن زنباع خير من مثل هذا الاتجاه أيضا:

-يقول ابن بياع في وصف الطبيعة: (الكامل)

أبدت منا الأيام زهرة طيبهـــــــا//وتسربلت بنظيرها وقشيبهـــــا

واهتز عطف الأرض بعد خشوعها//وبدت بها النعماء بعد شحوبها

وتطلعت في عنفوان شبابهـــــــا//من بعد ما بلغت عتي مشيبها

وقفت عليها السحب وقفة راحـــم//فبكـــت لها بعيونها وقلوبهـا

تشدو وتهتز الغصـــــــون كأنمـا//حركاتها رقص على تطريبها

ويظهر هنا جليا أثر الشعراء الأندلسيين كابن زيدون وابن هانيء.

-ويقول في النسيب: (الوافر)

نزاع ما أرى بك أمر نـــزوع//لقد شقيت به منك الضلوع

يروعك أم يريعك كـــل داع//أكل مـــــتوب داع سميع

وشوق تفتضيه نوى شطـون//فتقضى عنه واجبها الدمـوع

حملتَ الحب مؤتمنا عليـــه//فكيف يضيع ذلك أو يذيـع

وقد تحمي الدروع من العوالي//ولا تحمي الحـــذق الذروع

-وللقاضي عياض أيضا في النسيب مقال:(الوافر)

رأت قمر السماء فأذكرتني//ليالي وصلها بالرقمتيـــن

كلانا ناظر قمرا ولكـــــن//رأيت بعينها ورأت بعيني

-ويقول ابن زنباع:

لهواك في قلبي كريقك في فمي//غيري يقول الحب مر المطعم

فأدر علي بمقلتيك كؤوســـــه// حتى يــدِبُّ خمارُه في أعظمي

شغل النواظر والقلوب ولم يدع//من لم يسِمه من الأنـام بميسـم

ومن العجائب شغل شيء واحد//في الحال أمكنـــةً ولم يتقسم

وللقاضي عياض شعر في آخر في الغزل:

أقول وقد جد ارتحالي وغردت//حداتي وزمت للفراق ركائبـــي

وقد غمضَتْ من الدمع مقلتي//وصارت هواء من فؤادي ترائبي

ولم يبق إلا وقفةٌ يستحثـــــها//وداعـــيَ للأحباب لا للحبائب

وهناك الاتجاه الإخواني، ولكل من القاضي عياض وابن زنباع باع كبير، يمكن الاطلاع عليه في النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون. والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت.

ويمكن الحديث عن النثر في هذه المرحلة، حيث كانت هناك بعض الرسائل الديوانية والإخوانية المتبادلة بين أعلام العصر، وكانت في معظمها متأثرة بالنهج الجاحظي والمنهجية المحافظة والعبارات المترادفة والاعتراضية، في أسلوب بسيط مرسل عفوي. أما النثر الفني فكان مع القاضي عياض وابن زنباع من خلال مقالات اجتماعية نقدية وسياسية.

كما ظهرت مناظرات ثقافية وأدبية كالتي جرت بين ابن تومرت وعلماء مراكش، بحضرة علي ابن يوسف، وكذلك مناظرة أبي عمران الفاسي لعلماء القيروان. ينضاف إلى ذلك توقيعات الخلفاء والأمراء.

نختم هذا الدرس ببحث للمرحوم عبد القادر زمامة في الموضوع، كان نشره في مجلة دعوة الحق المغربية العدد18. يقول:

هذا البحث صغير في موضوع كبير، يحاول كاتبه أن يستجيب فيه لمطامح النفس المغربية التي نشعر بها دائما تسائلنا... نحن جزء لا يتجزأ من العالم العربي.. وتراث العرب تراثنا، ولغتهم لغتنا، وأدبهم أدبنا.. فما بالنا نجد في كتب التاريخ والأدب عشرات بل مئات الشعراء والمؤلفين ينتسبون إلى البصرة والكوفة وبغداد ودمشق وقرطبة في عصور الحضارة الإسلامية الأولى... بينما لا نكاد نجد من ينتسب منهم إلى مدينة من مدن المغرب الموجودة إذ ذاك... فهل كان الناس هنا في المغرب يعيشون من غير أدب...؟ وهل كان الناس هنا في المغرب يسمعون ويقرؤون آثار العلماء والأدباء الشرقيين والأندلسيين فيكتفون بذلك ويعكفون على ترديده ونقده من دون أن يتعبوا أنفسهم بإنشاء أدب جديد ذي طابع جديد..؟ أجل، هذه معضلة نصادفها دائما عند محاولتنا دراسة الأدب العربي في المغرب، وتكون المعضلة شديدة الوقع في النفس عندما نريد أن نقدم للناس كتابا في الأدب العربي يضم آثار أدباء العرب في مختلف العصور والأقطار العربية، لأن حظ المغرب يكون هزيلا شاحبا لا يطفئ غلة ولا يروي ظمأ... مما أدى ببعض المؤلفين إلى إهماله بالمرة أو الاكتفاء بما بقي من أدب الأندلس ..

وطبيعي أن يهتم الباحثون بهذا الموضوع، وطبيعي أن يحاولوا إرسال أضواء على ما غمض من آثار المغاربة الأولين.. وطبيعي أن يحبسوا أنفسهم على البحث والتنقيب علهم يظفرون بما يزيحون به الستار عن خفايا الماضي وغوامضه.. ولاشك أن الباحثين عن نشأة الأدب العربي في المغرب في العصور الأولى، أعني عصر الأدارسة ومغراوة وبني يفرن، يجدون أنفسهم أمام مادة تاريخية ضاعت جل مصادرها المعاصرة، ككتاب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن يوسف التاريخي المعروف بالوراق المتوفى سنة 292، وقد كتب هذا المؤرخ عن(البصرة) و(سجلماسة) و(نكور) و(فاس) وغيرها من حواضر المغرب في تلك العصور، وكتاب تاريخ الأدارسة للمؤرخ البرنوسي الذي ينقل عنه صاحب القرطاس كثيرا، وكتاب

تاريخ الأدارسة للمؤرخ ابن الودون الذي أشار إليه صاحب (بيوتات فاس) عند كلامه على عائلة ابن الودون.. الشهيرة، كما أنهم يجدون أنفسهم أمام عدة حواضر مغربية منها ما يؤسس ومنها ما يجدد بناؤه، وبنوع خاص في الناحية الشمالية من المغرب، لأن انعدام سلطة مركزية أدى إلى ظهور مطامح متعددة وإمارات وزعامات متعددة ولاسيما بعد انهيار دولة الأدارسة في فاس وتلاعب ساسة الفاطميين والمروانيين بزعماء القبائل التي كانت تطمح إذ ذاك إلى سد الفراغ الذي حدث بانحلال دولة الأدارسة ...

وفي هذه الظروف نجد في كتب الطبقات وكتب المسالك والممالك أسماء عدة شخصيات مغربية لها قيمتها الثقافية في علوم الشريعة والأدب، ونقرأ بعض المقطعات الشعرية كتلك التي رواها لنا البكري في مسالكه عند كلامه على مدينة البصرة المغربية التي كانت تعرف إذذاك ببصرة الكتان، أو بصرة الذبان، والتي كانت مشهورة بجمال نسائها الفائق، وينسب البكري القطعة لأحمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي يمدح أبا العيش بن إبراهيم بن قاسم:

قبح الإله اللهو إلا قينة في بصرة في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورود في وجناتها والكشح غير مفاض

ولم يرو البكري أكثر من ستة أبيات، كما أن المؤرخين رووا للإمام إدريس رضي الله عنه مقطعات شعرية في الفخر والحماسة، وكذلك لابنه القاسم بن إدريس، وكذلك لحفيده إبراهيم الذي هاجر إلى الأندلس وسكن قرطبة إلى أن أخرجه الحاجب المنصور ابن أبي عامر من الأندلس فيمن أخرجه من أهل بيته بعد الحادث الشهير الذي قتل فيه الحسن بن جنون .

يقول إبراهيم يهجو المنصور بن أبي عامر ويخاطب الأمويين الذين استبد بهم هذا الحاجب :

فيما أرى عجبا لمن يتعجب جلت مصيبتنا وضاق المذهب
إني لأكذب مقلتي فيما أرى حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد ويسوس هذا الملك هذا الأحدب
تمشي عساكرهم حوالي هودج أعواده فيهن قرد أشهب

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم وما لوجوهها تتغيب

وقد روى المؤرخون لهذا الأمير غير هذه القطعة، ولاشك أنك تلاحظ في القطعة التي أمامك مدح أمير علوي لأبناء أمية.!!! وهو غريب..! في بابه .

وقد اجتذب الأندلس كثيرا من المغاربة الذين اندمجوا في الوسط الأندلسي وعرفوا بنسبتهم إلى المغرب كالأصيلي راوية النجاري، ويحيى بن يحيى.. راوية الموطأ، ونجد غيرهما ممن ينسب إلى نفزة وأوربة وزناتة ومصمودة ومغرواة وغيرها، كما نجد القيروان هي الأخرى اجتذبت آخرين كالشيخ ابن عمران الفاسي، وقل مثل ذلك عن بغداد ودمشق والمدينة والإسكندرية وأخيرا... القاهرة ...

وليس لهذا من تفسير سوى أن الحياة ضاقت بهؤلاء في بلادهم بسبب الحروب والفتن الداخلية التي استمرت عدة أجيال لم يمكن معها أن يتذوق الناس حياة السلم والاستقرار التي هي الشرط الأساسي لازدهار الأدب والعلم .

والأدب والعلم إنما يزدهران عندما تسود اللغة ويعظم شأنها وتصبح أداة حية في المعاهد والمؤسسات الحكومية وعلى ألسنة الناس في حياتهم اليومية، وهذا ما حدث في مدن العراق وفارس ومدن الأندلس أيضا، فقد كانت موجات المهاجرين والعرب المسلمين دفاقة على هذه الأقطار منذ الفتح الإسلامي، ولم يلبث السكان الأصليون من فرس وأكراد وروم وأرمن وأنباط وغيرهم في الشرق أن أقبلوا على اللغة الجديدة يتسابقون إلى تعلمها واستعمالها كأداة للتخاطب أولا ثم كأداة للثقافة ثانيا. وفي الأندلس حدث ما يشبه هذا، وكان عدد العرب الذين استقروا بالأندلس بعد الفتح الإسلامي ونقلوا إليها لغتهم وعصبيتهم وأخلاقهم يفوق عدد إخوانهم الذين استوطنوا المغرب.. ويكفي أن نعلم أن عبد الرحمن الداخل الأموي دخل الأندلس سنة 138هـ فوجد النزاع على أشده بين العرب القيسية واليمينة وأنه استغل هذا النزاع لمصلحته الخاصة، حتى تم له الأمر وأسس الدولة الأموية التي كان لها الفضل الأكبر في حضارة الأندلس وازدهار العلم والأدب في ربوعها .

ونبوغ كتاب وشعراء ومفكرين كالجاحظ وأبي نواس والبحتري وأبي تمام هو تعبير صادق عما

بلغته الثقافة من رقي وازدهار في الوسط الذي عاشوا فيه في ظلال هرون الرشيد وابنه المأمون وآل برمك وآل خاقان .

كما أن نبوغ ابن عبد ربه وابن زيدون وابن عمار في الأندلس كان تعبيرا عما بلغته الحياة الأدبية من رقي على عهد عبد الرحمن الناصر ثم على عهد ملوك الطوائف فيما بعد .

وإذا لاحظنا أن سكان المغرب قد اندمجوا في الحياة الإسلامية، وإذا لاحظنا أن شعورهم الديني بلغ أعلى درجة من الحيوية والحماس، وإذا لاحظنا أنهم أقبلوا على القرآن يحفظونه ويتدارسونه وعلى تعاليم الإسلام يتعلمونها ثم يؤدونها بإخلاص وحسن نية.. فإننا نلاحظ أن حياتهم الثقافية كانت لا تتجاوز المحيط الديني إلى الأدبي إلا قليلا وفي ظروف خاصة وتحت تأثير عامل التقليد الذي لا ينفك يدفع ببعض الناس إلى نظم بعض المقطعات في المدح أو الهجو أو الفخر .

وأظن أنني لست في حاجة إلى أن أثبت في هذا البحث كل ما دونته في مذكرتي من مقطعات وأبيات رواها المؤلفون -الذين وصلتنا وآثارهم- لبعض المغاربة الذين أظلتهم عصور الحضارة الإسلامية الأولى ..

وأظن أنني لست في حاجة إلى أن أقول إن هذه المقطعات وهذه الأبيات سواء كانت متفرقة أو مجتمعة لا تمثل حياة أدبية يشترك فيها الأدباء مع رجال عصرهم... غير أن هذا الحكم لن يظل قائما إلى الأبد... فإذا ظهرت -خبايا الزوايا- وظهر ما تكنه من المخطوطات القديمة التي تتحدث عن تاريخ العصور الإسلامية الأولى بالمغرب فإننا ولا شك سنجد أنفسنا أمام مادة صالحة للدرس والتمحيص والاستنتاج، وفي انتظار ذلك سيظل الحكم الأول قائما لأنه مبني على الاستقرار والتتبع فيما هو موجود بين أيدينا من مصادر ووثائق.. إلى حد الآن...

هذه قصة نشأة الأدب العربي بالمغرب في العصور الأولى... وقد كان المغاربة، حتى في أيام ازدهار الأدب العربي على عهد الموحدين والمرينيين والسعديين، يتحاملون ذكر هذه القصة في مؤلفاتهم التي بين أيدينا لأنهم كانوا ولا شك يعتقدون أن المغرب كان في العصور

الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي موطن بطولة... وأبطال ومغامرين لا موطن أدب وأدباء وشعر وشعراء!!...

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⵎⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴱⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

كلية الآداب و العلوم الإنسانية -ظهر المهراز
ⵜⴰⵖⵡⵍⴰⵜ ⵜⴰⴷⴷⵓⵔⵉⵜ ⴰ ⵜⵎⴰⵄⵓⵍⵉⵜ ⵜⵉⵍⵖⵓⵣⴰⵉⵜ - ⴹⵀⵕ ⵍⵎⵀⵔⴰⵣ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Dhar El Mahraz